الباب الثانى

اللغة العربية ومظاهر أدابها بمصر فى القرن الأول الهجرى

الفصل الأول

الفتح الإسلامى بمصر

فى هذه المناسبة اهتم الباحث بإقدام توضيح حالة مصر من ناحيتين الدينية والسياسية. وذلك لكى نقف على مبلغ السهولة التى تم بها فتح مصر على أيدى العرب.

فأما حالة مصر الدينية قبل فتح الإسلام بها، فكانت مصر إحدى الولايات الرومانية، وكانت -كغيرها من الولايات- تدين بدين وثنى إلى أن ولد المسيح عليه السلام فى عهد الإمبراطور أوغسطس قيصر مؤسس الإمبراطورية الرومانية، على أثر انتصاره على جيوس أنطنيوس وكيلوبطرة سنة ٣١ ق. م. فأخذت تنتقم

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

الأباطِرَةُ الرومانُ تتوالى على الوَثَنِيِّيْنَ الذين اعتنقوا هذا الدِّيْنَ الجديدَ، وظلُّوا على ذلك إلى أن اعْتَرَفَ الإمبراطور قُسْطَنْطِيْن (٣٠٦-٣٣٧) بالدِّيْنِ المَسِيْحِيِّ، وساوى بين المسيحيةِ وغيرِها من الأَدْيَانِ، وأعطى المسيحيين بعضَ الإمتيازاتِ إلى أن جَعَلَ الإمبراطور تيودوسيوس (٣٧٨-٣٩٥م) المسيحيةَ الدينَ الرَّسْمِيَّ للدولةِ في السنة ٣٨١م.[١]

وبعد ذلك أخذت النقَمُ تتوالى على الوثنيين بعدَ أن كانت تتوالى على المسيحيين، على أن المسيحيين ما كادوا يَتَخَلَّصُوْنَ مِن الإخِتِلافَاتِ الدينيةِ، حتى وَقَعُوْا في الإختلافاتِ المذهَبِيَّةِ. ونشأ عن ذلك ما يُعْرَفُ بالمذهب الأُرثودكس والمذهب الكاثُوْلِيكِي وغيرِهما. وكان هذا المذهب سَبَبًا في انتشارِ البُؤْسِ والشَّقَاءِ بين المصريين.[٢]

---

[١] حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ص ٢٩٧

[٢] نفس المرجع، ص ٢٩٨-٢٩٩

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

وأما حالتها السياسيةِ فقد استولى الرومانُ على مصر سنة ٣٠ ق. م. فجَعَلَ أوغُسْطُس قيصرُ هذه البلاد مُخْزِنًا يَمُدُّ رُوْمَةَ بحَاجَتِها من الغِلال. وبذلك انْحَطَّتْ درجةُ العلمِ والعِرْفانِ فيها، وانْغَلَقَتْ أبوابُ المناصِبِ العاليةِ على المصريين، وزادت الضَرائِبُ في عهدِ الرومانِ زيادةً كبيرةً حتى شَمِلَتْ الأشخاصَ والأشياءَ، فكانت تجبى على الرؤسِ والصناعاتِ، وعلى الماشيةِ والأراضِي. ولم تكُنْ مقصُوْرَةً على أنواعٍ خاصةٍ من البَضائِعِ، بل كانت تجبى على المَارَّة رجالا ونساءً -تجارا وغيره- ومن صناعِ السُفُنِ، ومن زوجاتِ الجنودِ، وعلى أثَاثِ المَنَازِلِ. ولم تُقْتَصَرْ تلك الضرائبُ على الأَحْيَاءِ بل تعدتها إلى الموتى، حتى أنه كان لا يُسْمَحُ بدفنِ الميتِ إلا بعد دفعِ ضريبةٍ معينةٍ.

وقد ألزم المصريون بأبواءِ مَنْ يَمُرُّ بهم من الموظّفِين الملكيين والعسكريين من الرومانِ، وتقديمِ ما يلزمُهم من الحاجاتِ، وتَوْفِيْرِ أسبابِ الراحةِ لَهم في حِلّهم وتِرْحَالِهم، كما ألزموا في السنينِ الأخيرةِ بأن يقوموا بغداءَ الجنودَ. وقد أدَّتْ هذه

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

الأَعْبَاءُ إلى ضُعْفِ المصريين وخُمُوْلِهم وازْدَادِ سُخْطِهم على الحكمِ الرومانى، كما كان للإختِلافاتِ الدينيةِ نَتَائِجُ لا يُسْتَهَانُ بها، ومَهَّدَتْ السبيل لاستيلاءِ الفُرْسِ على مصرَ فَتْرَةً من الزمنِ، ثم لاستيلاءِ العربِ عليها.

لذلك لا عَجَبَ إذا أصبحَ المصريون يَتَطَلَّعُوْنَ لدولةٍ أُخرى تُخْلِصُهم من هذه الحالةِ السيئةِ وترفَعُ عنهم تلك المَظَالِمَ. وقد سَرّهم ما عِلمُوه من اسْتِيْلاءِ العربِ على الشامِ، كما سَرّهم ما سَمِعُوْهُ من حُسْنِ سيرتِهم فى البلادِ التى فتحُوْها، وتَمَنَّوْا أن يكونَ خلاصُهم من ظلمِ الرومِ على يدِ المسلمينَ.[٣]

إن العربَ قد فَتَحُوْا مصرَ على يَدِ عمرو بن العاص فى أيام الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠ من الهجرة، وأنه قَدِمَ إليها فى أربعةِ آلافِ مقاتلَ، كانوا جَميعا من قبيلةِ عك بن عدنان، وأنه بعد دُخولِه مصرَ أَمَدَّهُ الخليفةُ بأربعةِ آلافٍ آخَرِيْنَ، ثم بغيرِهم وغيرِهم، حتى كان جميعُ مَنْ قَدِمَ إليها فى فَتْرَةِ الفتحِ ستةَ عشرَ ألفا.

---

[٣] نفس المرجع، ص ٢٩٩–٣٠٠

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

مَاتَ منهم كثيرٌ أيامَ الفَتْحِ.

ذكر يزيدُ بنُ حبيبٍ أن عددَ الجيشِ الذى كان خمسةَ عشرَ ألفا وخمسمائة. وذكر عبد الرحمن بن سعيد أن الذين جَرَتْ رِمَاحُهم فى الحِصْنِ من المسلمين كانوا اثنى عشرَ الفا وثلاثمائة بعدَ أن أُصِيْبَ منهم فى الحِصارِ.[٤]

فتح العربُ حِصْنَ بابِلِيُوْنَ، ثم قَصَدُوْا إلى الإسكندريةِ ففتحُوْها، ثم عادوا بعد ذلك إلى حيث فُسْطاط قائدهم وتجمعوا حوله. قال: انضَمَّتْ القبائل بعضها إلى بعضٍ وتنافَسُوا فى المواضعِ، فولَّى عمرو على الخُطَطِ معاويةَ بن خَديج التجيبى وشريك بن سمى القُطيفى وعمرو بن مخزوم الخولانى وجبريل بن ناشر المعافرى، فكانوا هم الذين انزَلُوْا الناسَ وفصلوا القبائلَ، وذلك فى سنة إحدى وعشرين هجريةً.

هذا ما كان من أمرِ جُمْهُوْرِ العربِ، وقد بقى منهم بالإسكندريةِ الزبيرُ بنُ

---

[٤] نعبد المنعم حمادة، مصر والفتح الإسلامى فى العيد الألفى للقاهرة، ص ٤٤

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

العوامِ ومن مَعَهُ، ولم يكن بها خطط، وإنما كانت أخائِذُ من أخذ منزلا نزل فيه هو وبَنُوْا أبيهِ.

واخْتَطَتْ هَمَدَانُ ومن والاها الجِيْزَةَ، لأنها اسْتَحَبَّتْها وأرادها عمرو على النزولَ بجوارِه فى الفسطاط، فأَبَتْ فبنى لها حِصْنا يَقِيْها الأعداء كما أشارَ عليه أمير المؤمنين، وكان لكل بطنٍ منهم خِطَّةٌ، وبين كل خِطَّةٍ والتى تَلِيْها فَضَاءٌ، فلما قَدِمَتْ الأَمْدَادُ فى زمنِ عثمانَ ثم فى زمنِ معاويةَ ومن بعده وكثير الناس ووسع كلُّ قومٍ لبنى أبيهم كثر البنيان وتأمت الخطط.

وكان عمرو بن العاص يجمع الجندَ حولَه فى الفسطاط، فإذا خرجوا القتالَ عادوا إلى خُطُطِهم، حتى إذا حضرَ أوانُ الارْتباعِ سَمَحَ لهم عمرو بالإنْصِرَافِ إلى المرابعِ ووَصَّاهم بجيادِهم قائلا: لا أعلمن ما جاء رَجل قد أَسْمَنَ نفسَه وأهزَل فرسه، فإذا حَمُضَ اللبنُ وكثر الذُّباب وقوى العودُ فارجعُوْا إلى قيروانكم. وكان يواصيهم خيرا بِمَن يَمرون بهم من أهلِ البلادِ فيقول، واسْتَوْصُوْا بِمَن جاورتُموهم

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

من القبطِ خيرا، ويُروى لَهم حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو: إنَّ اللهَ سَيَفْتَحُ عَلَيْكُمْ بَعْدِيْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوْا بِقِبْطِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِنْهُمْ صِهْرًا وَذِمَّةً. وكان يقول لهم: وَاعْلَمُوْا أَنَّكُمْ فِى رِبَاطٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِكَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ حَوْلَكُمْ وَتَشَوَّفَ قُلُوْبُهُمْ إِلَيْكُمْ وَإِلَى دِيَارِكُمْ مَعْدَنُ الزَّرْعِ وَالْمَالِ وَالْخَيْرِ الْوَاسِعِ وَالْبَرَكَةِ التَّامَّةِ.[٥]

هذه هى السياسةُ التى سَارَ عليها عمرو بن العاص بمصرَ. يَجمعُ القبائلَ طُوْلَ العامِ حتى إذا حَلَّ الربيعُ أباحَ لهم الاِرْتِبَاعَ وشَرَطَ عليهم العِنَايَةَ بِخُيُوْلِهم ووَصَّاهُمْ بِحُسْنِ الجوارِ للأقباطِ فى أَدْيَافِهم، حتى إذا عَادُوْا إليه أَقَامُوْا إلى الرَّبِيْعِ الْقَادِمِ مُتَأَهِّبِيْنَ للحَرْبِ وصَدِّ الغَارَةِ، وقد حَرَّمَ عليهم عمرو اتخاذَ المَزَارِعِ بأمر عمر بن الخطاب الذى أخرجَ مُنَادٍ إلى أُمَرَاءِ الأجنادِ يأمُرُهم أن يتقدَّموا إلى الرعيةِ بأن عِطَائُهم قائمٌ ورِزْقُ عِيالِهم سَائِلٌ فلا يزرعُوْنَ.

---

[٥] نفس المرجع، ص ٤٩

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

وقد أتى شريك بن سمى القطيفى إلى عمرو بن العاص يَسْتَأْذِنُهُ فى الزرعِ فقال له عمرو: ما أَقْدِرُ على ذلك، فَزَرَعَ شريك من غيرِ إذنِ عمرو فشكاه إلى عُمر فاستقدمه إليه ولكنه تابَ على يَدَيْهِ فعفا عنه.[٦] وما اتخذ عمر هذه السياسةَ ولا وصى بها عُمَّالَه إلا ليجعلَ العربَ فى رِباطٍ دائمٍ ليكونوا على اسْتِعْدادٍ لعدُوِّهم.

ولابد أن نؤمنَ بأن هذا العددَ الذى دخلَ مِصْرَ فى أولِ فتحِها قد زادَ بالتَوالُدِ وتَتابُعِ الْهِجْرَةِ التى كان من أسبابِها حُلُوْلُ الْقُحْطِ فى بلادِ العربِ فى بعضِ الْأَعْوامِ، وقد كانت مصرُ والشامُ مَلْجَأَ العربِ حين حُلُوْلِه حتى فى أيامِ الجاهليةِ، وكانوا يُسَمُّوْنَ هذه الأعوامَ أعوامَ الْجَلاءِ.

ولما فُتِحَتْ وشاعَ خَبَرُ خصبِها كانت مقصدَ كلِّ طامعٍ فى الرَّخاءِ واليَسَرِ يقدم إليها آنسا بِمَنْ فيها من بنى أعمامِه وأخوالِه من الفاتِحين.

---

[٦] نفس المرجع، ص ٥١

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

وقد استلزمَتْ سياسةُ العصبيةُ القبيليةُ أن يستكثرَ الوالى حولَه مِن أهلِ قبيلةٍ حيث يكون ليكونوا ظهرَه وعَوْنَه على أَعْدَائِهِ من القَبَائِلِ الآخرى، وكذلك كان الخلفاءُ يَحْرُصُوْنَ على أن يكون لهم بكل مصر جُمْهُوْرٌ من أنصارِهم ليأمنوا الثَّوْرَةَ على ولاتهم خلع طاعتِهم فى تلك الأمصارِ.

ومن ذلك أن هشام بن عبد الملك كان يقربُ قبيلةَ العدنانية لأنهم نصروه وأَيَّدُوْا سياستَه، ولم يكن منهم بمصر إلا بعضُ البطونِ فأمر بإلحاقِ ثلاثةِ آلافٍ منهم بمصر وتحويلِ ديوانهم إليها.[٧] فأنزلوا بالخوف الشرقى (الشرقية القهلية) وأمرهم بالزرع ثم تَقَاطَرُوْا بعد ذلك وتكاثروا.

وطبيعىٌّ أن سياسةَ عمر بن الخطاب خِيَالَ جندِ العربِ لا تَسْتَمِرُّ نَافِذَةً محترمةً، فإن للأيامِ والسياساتِ تغيّرا لا يَثْبُتُ معه شيئٌ، فهؤلاء العرب الذين جَعَلَهم عمر وعمرو فى الرباطِ قد استكانوا واسْتَنَامُوْا إلى الرَّاحَةِ وسكنوا الدُوَرَ

---

[٧] الكندى، الولاة والقضاة، ص ٥٨

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

واتخذوا السَّرارِى من بَنَاتِ الأَقْبَاطِ والرُّوْمِ كما ألفوا الرِّيفَ لا يريمونه. وقد رأيت أن هشاما أمر قيسا أن تزرعَ وقد كان هذا محرما على أيام عمر.

ولكن الذى ينبغى أن لا ننساه أن العربَ بَقَوْا إلى آخر الدولةِ الأمويةِ قلةً إلى جانب الأمةِ المصريةِ مُنْخَازِيْنَ وحدهم لموضعِ العصبيةِ فيهم ولأنفسِهم من الإختِلاطِ لذلك بقى أهلُ الرِّيفِ من القِبْطِ يتكلمون بالقبطيةِ ولا يَعْتَنِقُوْنَ الإسلامَ حتى أظلت القومُ الدولة العباسية.

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

الفصل الثانى

انتشار اللغة العربية فى مصر

انْتَشَرَتْ اللغةُ اليونانيةُ بمصرَ من أيامِ البطالسة وظلَّتْ أيامَ حكمِ الرومانِ حتى أن الوالى الرومانى كان يَصْدُرُ منشُوْرَةً إلى المصريين باليونانية، وبلغ من ذُيُوْعِ تلك اللغة أنْ كانت بعضُ صلواتِ الكَنَائِسِ المصريةِ تُرَتَّلُ بها، على حينٍ كان مُرْتلُوْهَا إنما يتكلمون فيها بينهم بالقبطيةِ. وكان من أثرِ اليونانيةِ أن كُتِبَتْ القبطيةُ بحروفٍ يونانيةٍ كما امتلأتْ بالدخول من ألفاظِ تلك اللغةِ، ولكن الغلبةُ لليونانيةِ إنما كانت بالأمصارِ حيث تُعَلَّمُ اليونانيةُ بالمدارسِ. أما فى الأَرْيَافِ وبلادِ الصعيدِ خاصةً فكانت الغلبة للقبطيةِ.

وفى القرن السادس الميلادى لما ازْدَادَ شُعُوْبُ المصريين بالإضْطِهَادِ وكرهوا كلَّ ما هو أجنبىٌّ حاربوا اللغةَ اليونانيةَ فى الكنائسِ وأَحَلُّوْا القبطيةَ مَحَلَّهَا فى الأدعيةِ والصلواتِ، فضَعُفَ شأنُ اليونانيةِ، ولكن لم يَمنعْ أن ظلت اليونانيةُ

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

مُسْتَعْمَلَةً بمصرَ إلى ما بعد الفتحِ الإسلامى، فقد حُفِظَتْ أوراقٌ من البُرْدِيِّ يَرْجِعُ تاريخُها إلى عهد الوليد بن عبد الملك كُتِبَتْ باليونانيةِ والعربيةِ، وهى وَثَائِقُ من الوالى نفسِه، وأخرى كُتبت باليونانيةِ وحدَها . ولا يُوْجَدُ من الأوراقِ ما كُتبت بالقبطيةِ، فمما ذكرَه مؤرخوا العربِ من كون الدواوينِ بمصرَ كانت بالقبطيةِ، ثم نُسِخَتْ بالعربيةِ لا يُؤَيِّدُه شيءٌ من الآثارِ المحفوظةِ . وقد يكون الحاصِلُ للعربِ على هذا الزَّعْمِ أنهم لما رأوا عُمَّالَ الدواوينِ بمصر من الأقباطِ ظنّوا أن عملَهم فيها كان بالقبطيةِ، ولكن يَبْعُدُ هذا الزعمُ ما عرفتَه آنفا من عِنايةِ المصريين باليونانيةِ حتى أنهم كانوا يتعلَّمون بالمدارسِ، وحتى كانت هى اللغةُ الرَّسْمِيَّةُ فى حكمِ الرومانِ والعربِ من بعدِهم .

أما النصُ العربىُ الذى كان مَصْدَرَ هذا الزَّعْمِ فهو ما قاله الكندى فى كتابه الولاة والقضاة، قال . . . حتى كانت ولايةُ عبد الله بن عبد الملك بن مروان فأمر بالدواوين فنُسِخَتْ بالعربية وكانت قبل ذلك تُكْتَب بالقبطيةِ، وصَرَفَ عبدُ الله

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

أشناس عن الدواوين وجَعلها عليها ابنُ يَرْبوع الغزاوى من أهل حِمْصَ وذلك سنةَ سبعٍ وثمانين هجريةً.[٨]

وعلى الجملةِ أن من أَهَمِّ العوامِلِ الباعِثَةِ إلى انتِشَارِ اللغةِ العربيةِ وأدابِها فى مصرَ بعد الفتحِ الإسلامى بها هى نُزُوحُ القبائلِ العربيةِ إليها واختِلاطُهم مع أهلِها.

والقبائلُ العربيةُ النَّازِحَةُ إلى مصر بعد الفتح، فبعض ما ورد فى كتاب التاريخ منها ومواطنها لتلك البلاد وفى ذلك ما يُؤْنِسُك فى الحكمِ على ما نسمَع من لَهجَاتٍ ونسبتِها إلى أهلِها من قبائلَ فى جزيرةِ العربِ.

ومن القبائلِ التى اختَلَطَ بالفسطاطِ وأقامت بها مهرةُ وتجيب ولَخم وغَسان وغافق ومن بنى غافق بطنهم يعرفون ببنى قرافة سكنوا سَفْحَ المقطمِ ثم تركوا أماكنهم وتفرقوا فى البلاد المصرية.

---

[٨] نفس المرجع، ص ٥٩

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

وبعد أن تَمَّ فتح سير عمر بن الخطاب قبيلة بلى من قضاعة إلى مصر فانتشروا فى البلاد ولاسيما حول اخميم ثم تصالحت مع جهينة على أن يكون لها من الشرق من عقبة إلى عيذاب (القصى) .

وفى إمارة الوليد بن رفاعة على مصر سنة ١٠٩ نزل بنو سليم (وهم من قيس) بأرض مصر وكانوا ثلاثة آلافٍ فأنزلهم الوليدُ الخوف الشرقى . وسكن بنو عقبة وهم من جذام ما بين أيلة والخوف، كما سكن قوم من جذام أيضا ومن لخم بالإسكندرية .

هذه صورة من كلام القوم عن القبائل التى نزلتْ مصر وقد تَجَلَّى فيها عدمُ استِقْرار القومِ بالأماكن التى ينزلونها أولا بأن عدم الدقَّةِ التى كانت تَسْتَوْجِبُ ذكرَ الغالبِ والمغلوب من القبائل التى اشْتَرَكَتْ فى جهةٍ واحدةٍ .

وعلى أثرِ الفتحِ الإسلامِىِّ بمصرَ بدأتْ العربيةُ تزاحِمُ القبطيةَ واليونانيةَ، وكان للمجاوَرةِ بين العربِ والأَقْبَاطِ أثرٌ فى ذلك لحاجة هؤلاء إلى مخاطبةِ جيرانهم

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

فى كل ما يتَّصِلُ فيه المحكوم بحاكمه، وكذلك كان لتبديل لغة الدواوِين وجَعْلِها بالعربية أثرٌ آخرُ، وكان من نتائجِ ذلك أن القسيس بنيا من أجاد تعليم العربية حتى أنه شرح بها الإنجيل للإصبع بن عبد العزيز بن مروان. وكان كل من أسلَمَ من القبط إما اقْتِنَاعًا بفضلِ الإسلامِ أو هَرَبًا من الجزيةِ مُضْطَرٌّ أن يتعلمَ العربية ليقرأ بها القرآنَ وحديثَ رسولِ الله وليفهم الدِّينَ من أفواه رجاله. وما زالت العربيـة تزاحمُ القبطية حتى القديس شنوده كتب مؤلفاته بالقبطية، ثم اضْطَرَّ أن يترجَمها إلى العربية لينسنى للأقباط أن يقرءوها.

وقد ذكروا عن مَرَاسِيْمِ الْكَنِسْيَةِ القبطيةِ أنها كانت قديما تُكْتَبُ باليونانية وتُشرح للناس بالقبطية، ثم صارت تُكْتَبُ بالقبطية وتُشرح بالعربية، وما زال الزمن يتقدم والعربية تنتَشِرُ حتى كان المصرى المُثَقَّفُ فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) يَفْتَخِرُ بأنه يعرف القبطي. وحدث أن الأقباط رأوا لغتهم تتَقَهْقَرُ أمام العربيةِ فأرادوا أن يعملوا على إحيائِها فلم تنْجَحْ حركتُهم وكان ذلك قد ثبتت

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

حتى لا يستطيع زحزحتها ثم بلغ من جهل الأقباط للغتهم أن المسعودى حين زَارَ مصرَ سأل الأقباط عن معنى كلمة فرعون فلم يَظْفَرْ بِجوابٍ وقال فى ذلك فى الجزء الأول من كتابه مروج الذهب ص ٢١١ : وسألتُ جماعةً من أقباطِ مصرَ بالصعيدِ وغيرِه من بلاد مصر من أهل الخُبْرَةِ عن تفسير فرعون فلم يُخْبِرُوْا عن معنى ذلك .

وأخيرا كانت القبطيةُ لا تُسْتَعْمَلُ إلا فى الأَدْيِرَةِ وعلى ألسنةِ النصارى من أهل الصعيدِ ، كما ذكروا أن قرية درنكه بِجوارِ أَسيوط يَعْرِفُ أهلُها من النصارى اللغةَ القبطيةَ ويتكلم بها صغيرُهم وكبيرُهم ويفسرونها .

وبحكمِ التَّمَازُجِ بين العنصرَين القبطى والعربى تَكَلَّمَ بعضٌ بالقبطيةِ ، فقد قيل إن البطريق توما لما حوكم سنة ٨٥٠ م خاطَبَ أهلَ مِلَّتِهِ بالقبطيةِ بِحُضُوْرِ

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

جَماعةٍ من العرب ففهموا كلامَه وأَنْهَوْهُ إلى القاضى . ومن نتيجةِ التمازُج أيضا أن وَجَدْنَا كلماتٍ فى اللغة التى يتخاطَبُ بها المصريون وهى قبطيةُ الأصلِ .[٩]

---

[٩] نفس المرجع، ص ٦٠-٦٢

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

الفصل الثالث

مظاهر الأدب العربى فى مصر فى هذا القرن

إن الكلامَ فى هذا الصَّدَدِ ينقسمُ إلى مَدَيْنِ، وهما مدة عهد الخلفاء الراشدين ومدة عهد الدولة الأموية. فأما مظاهِرُ الأدب العربى فى عهد الخلفاء الراشدِين فهى مظاهر الأدب العربى فى كل البلاد التى فتحها العرب ولم يكونوا بعد قد توثَّقَتْ علاقاتُهم بأهل البلادِ المفتوحةِ، ولا نَسُوا عاداتَهم القديمةَ ولا تأثرت لغتهم بعجميةِ تلك الأمم. فكانت مظاهِرُ هذا الأدب هى الإفصاح الذى لا تَشْوِيْبَهُ شَائِبَةٌ - فى الكُتُبِ المتبادِلَةِ بينَهم وبين الخلفاء فى شُئُوْنِ الدولةِ وتدبيرِ أمر هذه الأقاليم، كما كان لهم الشعرُ الذى عُرِفَ فى هذه الأمة بالكثرة التى لا حَدَّ لها حتى كاد يكون قائلٌ منهم شاعرا، ولكنه ظل كما كان شعرُ الفطرةِ الذى عُرِفَ لعربِ الجاهليةِ أولا والإسلام ثانيا لا زُخْرُفَ فيه ولا زِيْنَةَ، فهو شعرُ النفسِ المُرْسَلَةِ، يقوله الرجلُ فى مُفَاخَرَةِ آبائِه وفى الإعْتِزَازِ بدِيْنِهِ كما يقوله فى الحكمةِ

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

الفصل الثالث

مظاهر الأدب العربى فى مصر فى هذا القرن

إن الكلامَ فى هذا الصَّدَدِ ينقسمُ إلى مَدَيْنِ، وهما مدة عهد الخلفاء الراشدين ومدة عهد الدولة الأموية. فأما مظاهِرُ الأدب العربى فى عهد الخلفاء الراشدِين فهى مظاهر الأدب العربى فى كل البلاد التى فتحها العرب ولم يكونوا بعد قد توَثَّقَتْ علاقاتهم بأهل البلادِ المفتوحةِ، ولا نَسُوا عاداتهم القديمةَ ولا تأثرت لغتهم بعجميةِ تلك الأمم. فكانت مظاهِرُ هذا الأدب هى الإفصاح الذى لا تَشْوِيْبَهُ شَائِبَةٌ - فى الكُتُبِ المتبادِلَةِ بينَهم وبين الخلفاء فى شُئُوْنِ الدولةِ وتدبيرِ أمر هذه الأقاليم، كما كان لهم الشعرُ الذى عُرِفَ فى هذه الأمة بالكثرةِ التى لا حَدَّ لها حتى كاد يكون قائلٌ منهم شاعرا، ولكنه ظل كما كان شعرُ الفطرةِ الذى عُرِفَ لعربِ الجاهليةِ أولا والإسلام ثانيا لا زُخْرُفَ فيه ولا زِيْنَةَ، فهو شعرُ النفسِ المُرْسَلَةِ، يقوله الرجلُ فى مُفَاخَرَةِ آبائه وفى الإعْتِزَازِ بدِيْنِهِ كما يقوله فى الحكمةِ

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

والخطابةُ، زاد القومُ فى مثل هذه الأحوالِ التى كانت للمسلمين حينذاك يحتاجون إليها للحثِّ على القِتالِ ونَشْرِ الدينِ، كما يحتاجون إليها فى إعْلانِ رأْىِ السياسةِ بدالَهم أن يطلعوا الناسَ عليه وهم مَدْفوعون إليها لأنها قد وجَبت بالإسلام فى كل أسبوع مرةً، والقومُ بعدُ يملكون أداتَها ومن اللسن وحُضورِ البَديهةِ، فلم يكنْ يدفعُهم عنها عجزٌ ولا يقصُرُبهم عن مَوَاقِفِهَا عَائِقٌ. وكان الخليفةُ يخطبُ فى البُعْثِ يُرسِلُهُ، وفى الأمدادِ يَسْعُفُ بها قُوادُه، وكان الوالى يقومُ بها فى كلِّ جُمعةٍ وفى كل مُناسَبةٍ مذكرا بالله حاثًّا على فَتْواه حَامِلاً جُنْدَهُ على الصبرِ فى القتال أو البقاءِ فى الرِباطِ ناصحا لَهم بما يَنْبَغى أن يكونوا عليه من حُسْنِ الجِوَارِ لمن يُخَالِطونَ بهم من أهلِ البلادِ المفتوحةِ.[١١]

وقد كان العربُ يقومون بالخَطابةِ فى مصر قائلينَ فى هذه الأغراضِ السابقَةِ، مَثَلُهم فى ذلك مثلُ إخوانهم فى جميعِ الأَقْطَارِ الإسلاميةِ. ومن أشهرِ

---

[١١] نفس المرجع، ١٢٦-١٢٧

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

خُطَبائِهم فى مصر فى هذا القرن عمرُو بنُ العاص وقيسُ بن سَعد ومحمدُ بنُ أبى بكر وعُتبة بن أبى سفيانَ.

وكذلك الكتابةُ، ظلت مُتَرَسِّمَةً خطتَها الأولى، فهى بين الخليفة والوالى فى شئونِ الإدارَةِ أو بين الوالى وطامعٍ فى الملكِ، يريدُ أن يَسْتَدْرِجَه ليدخلَ فى جُملتِه وينضمَّ إلى شِيْعَتِه، فهو يُهَدِّدُهُ مَرَّةً ويُطْمِعُهُ أخرى، ثم هى لا تزال على حالِ سَذاجَتِها الأولى، لم يتَّخِذْ الوالى بعدُ كاتبا خاصا يتولَّى إنشادَ رسائِله، بل هو يُنشئُها إنشاءً وربما تولى كتابتَها بيده إلا أن يتخذ كاتبا بين يديه يُمْلى عليه ما يريدُ، غيرُ مُلتزم حدودا فى البدء والخِتام والنوع والورق، كتلك التى التزمَتْ فيما بعدُ، وتَعَقَّدَتْ تعقُّدا زائدًا.

وتمثَّلت كتابةُ هذا العصرِ فى تلك الرسائلِ السياسيةِ التى تَبادَلَتْ بين الخلفاءِ وولاتِهم فى شئونِ الحُكْمِ ومُقْتَضَياتِ الرِّياسَةِ، وكان لها أيضا مظهرٌ ناشِطٌ

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

فى كُتُبٍ كانت بين الزُّعماءِ والرؤساءِ يدعون إلى حِزْبِهم ويُزَيِّنون لهم مذاهبَهم ويطْمَعونَهم فى الخير من وراء مُتابَعتِهم.

وقد كان من هذه الكُتب كثيرًا ما وُجّه إلى مصر، وصَدَرَ عنها خصوصا ما يتوَصَّلُ بالزُّعامةِ ويدعو إلى الإنتِصارِ لفريقٍ على آخر، لأن لمصر مكانتَها بين الولاياتِ فى قُوَّةِ جيشِها ومُناعَةِ موقعِها والتَّعْوِيلِ على رأيِها فى السياسةِ القائمةِ.[١٢]

ونَرى من هذه الآثارِ أمثلةً شاهدةً بالصَّراحَةِ فى القولِ، والحِرْصِ على مصالحِ المسلمين والرِّعايَةِ لعُهُوْدِ أهلِ الذِمَّةِ، كما نرى جُنُوْحَ السياسةِ، والمبالغةِ فى تَزْيين الرأى، والإطماعِ والتأميلِ مكافأةً على سَدِّ الأَزُرِّ ونَصْرَةِ المذهبِ.

وإن كنا نرى كلَ ذلك محاطًا بسِياجٍ من تقوى الله، وأن أحدَهم إنْ حرَص على مكانةٍ أو سعَى لولاية فإنما يرجو من وراء ذلك تحقيقَ النفعِ الخالصِ لعبادِ اللهِ

---

[١٢] نفس المرجع، ص١٢٧–١٢٨

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

وحُسْنِ القيامِ على أَوَامِرِ الدينِ ونَوَاهِيْهِ، فأما المُتْعَةُ المَادِّيَةُ وحِيَازَةُ الدنيا والشهواتُ للإنْتِقامِ من الخصومِ، فذلك غيْرُ داخِلٍ فى حِسَابِ هؤلاء الذين تشَرَّفُوْا بصُحْبَةِ رسولِ الله وتأدَّبوا بأدبِهِ.

وقد تمثَّلَ كلُّ ما ذكرناه من غرضٍ ناطِقَةٍ بما قدِمْنا من انْطِبَاعِ كلامِ القومِ على الفطرةِ والبُعْدِ عن التَّكَلُّفِ والزينةِ اللفظيةِ، ماثلا كلُّ ذلك فى بَدْئِهم وخِتامِهم إذا كانوا يبدؤونها غالبا بعد البَسْمَلَةِ بذكرِ المرسِلِ ويَثْنُوْن بذكر المرسَلِ إليه أيا كان أحدهما، فيقول الخليفةُ: مِنْ عبد الله فلانٍ إلى عبد الله الخليفةِ. ثم يقول أحدُهم: سلامٌ. ثم يفصل بأَمَّا بعد بين ذلك وبين غرضه الذى يَكْتُبُ فيه. ثم يَخْتِم بقوله: والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته.

وكانوا يُوجِزون حتى يكاد الكتابُ فى الشأن الذى لا شأنَ مثلُه يكون سَطْر أو بعض سطر، كما كانوا يُطيلون إذا اقْتَضَى الأمرُ الإطَالَةَ فى ذكرِ شروطِ صُلْحٍ أو بيانِ نظامِ حكمٍ أو غير ذلك مما نَكْتَفِى بالإشارةِ إليه.

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

وكذلك الشعرُ بقى فى الغالب، وهو نَفْثَةٌ تَجِيْشُ بها نفسُ المرءِ، فَيَشْكُوْ حالا أو يفتَخِرُ بطريق أو تلد أو يُهَاجِى عدوّا فيعدُّ عليه مثالِبَه ومثالبَ قومه أو يمدَحَ أخا على يدٍ أو يرثيه مُوْفِيا بعهد صداقتِه وإخواته.

ويصح أن ندعِىَ نشوءٌ جديدٌ فى الشعر. وذلك هو الذى يُقَدِّمُ به شاعرٌ طامعٌ فى عِطاءِ الوالى، فيمدحُه به مُعَدِّدا مآثرَه مُظهِرِ تفهيمَ أمرِه، ولزم من أجْلِ ذلك أن يجلسَ هذا الوالى مجلِسا عاما يحضرُه كبارُ القوم، لسِماعِ هؤلاء الشعراءِ، فتهجَ الوالى الأَرِيْحَةَ ويتحركَ عطفُه لهذا الثناءِ المأجورِ، كما لزم أيضا أن يَنْصَرِفَ بعضُ الشعراء إلى التكسُّبِ بهذا المدح، وإن كانوا يعدّ لم يصلوا إلى جعله مرتزقهم الذى يَعُوْلُوْنَ عليه وحدَه فى كسبِ قُوتِهم، لأن العربَ بمصر كانوا لا يزالون إلى ذلك الحين جندا فى الجيش مدوّنةً أسْماؤُهم فى الدواوين، فلهم من بيتِ مالِ الدولةِ أعطياتٌ تُكْفِيْهم وأبنائَهم حاجةَ العامِ كلِّهِ.[١٣]

---

[١٣] نفس المرجع، ص ١٢٩–١٣٠

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id